مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 03، سبتمبر 2022، صص: 117 - 130
تاريخ الاستلام(2021/05/01)تاريخ القبول (2022/09/10)تاريخ النشر (2022/09/30)

الرّمز الأدبي بين الغموض والأبعاد الجمالية والإقناعية نماذج من أشعار فدوى طوقان

The Literary Symbol between Ambiguity, Aesthetic and Persuasive Dimensions: Examples of the poetry of Fadwa Toukan

عبد القادر قعموسي
المدرسة العليا للأساذة (بشار)، gaamouci1975@gmail.com

ملخص:

يتناول هذا البحث الرمز الأدبي بين الغموض ووضوح المعنى وما يُسبل عليها من مسحة جمالية وبُعد إقناعي، باعتبار الرّمز مظهر من مظاهر التجديد في الشّعر الحديث والمعاصر احتضنه الشّعراء وخاصة شعراء المقاومة الفلسطينية، فوقفنا على الرّمز و أنواعه وسِماته وحاجة الشّعراء في استخدام الرّمز استجابة للبُعد الجمالي ورُكُونِهم للإضمار دون الإفصاح لحاجة إقناعية، ومنهم الشّاعرة فدوى طوقان صاحبة الحّس المرهف والشّعر الهادف والمقاصد الجليلة التي تعمل على شحذ الهمّم إيقاظ الضمائر.

كلمات مفتاحية: الرمز؛ الغموض؛ الوضوح؛ الجمالية؛ المقاومة؛ فدوى طوقان.

Summary

This research deals with the literary symbol between ambiguity and clarity of meaning and the aesthetic touch and persuasive dimension, considering the symbol as a manifestation of renewal in modern and contemporary poetry embraced by poets, especially poets of the Palestinian resistance. Without disclosing a persuasive need, among them is the poet Fadwa Toukan, who has a delicate sense, purposeful poetry, and great purposes that work to sharpen the spirit and awaken consciences.

Keywords: symbol; ambiguity; clarity; aesthetic; Resistance; Fadwa Toukan

المؤلف المرسل: عبد القادر قعموسي، الإيميل: gaamouci1975@gmail.com

1. مقدمة:

إثر التغيرات التي يشهدها الواقع العربي والفلسطيني على وجه الخصوص سياسيا واجتماعيا وثقافيا، اتجه كثير من الشعراء إلى أشكال فنية وأعمال إبداعية يكتنفها الغموض والإبهام لمّا عرفته من استخدام للرّموز على أشكال وأنواع متعددة، وكانت شاعرتنا فدوى طوقان من بين شعراء المقاومة الذين عايشوا مرارة الاحتلال والاضطهاد الذي انعكس على أشعارهم، ممّا جعلنا نتساءل: ما هي أهمية الرّمز في الشعر؟ وكيف يتأتى للمتلقي القبض على مقاصد الشعراء؟ للإجابة على هذه الأسئلة قسمنا هذا البحث إلى عدّة محطات تمثلت في إعطاء مفهوم للرمز، وآليات استخدامه، ودراسة بعض النماذج لفدوى طوقان منتهجين الوصف والتحليل، مُظهِرين مواطن الغموض وكيف أبدى مسحة جمالية وبُعد إقناعي.

1-مفهوم الرمز:

1-1الرمز لغة:

هو «تصويت خفي باللّسان كالهمس، ويكون تحريك الشّفتين بكلام غير مفهوم باللّفظ من غير إبانة بصوت إنّما هو إشارة بالشفتين... وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشار إليه بما يُبَان بلفظ بأي شيء أشرت إليه باليد أو بالعين.»[1]

1-2 الرّمز اصطلاحا:

تعرض مفهوم الرمز لتعريفات مختلفة ووجهات نظر متباينة، يقول النّاقد إبراهيم رماني: «الرمز لحظة انتقالية من الواقع إلى صورة مجردة، وهي الإطار الفني الذي يتم فيه الخروج من الانفعال المباشر إلى محاولة عقلنته، وهو تجسيم للانفعال في قالب جمالي.»[2]ومن مفاهيم الرمز المعاصرة لدى الأديب هو تحطيم القوانين المألوفة قصد بناء عالمه الأدبي المتميز بالغموض، وأصبح ظاهرة متداولة في الأدب الحديث والمعاصر.

«ويعتمد الرّمز على التشابه النفسي بين الأشياء، وهو ثمرة يقتطفها الشاعر من خلال إدراكه الحدسي للعلاقات العميقة والخفية بين ظواهر المادية وما يختبئ وراءها من أسرار، ثم يوظف الطاقة الإيحائية المتولدة من التقاء الأشياء للكشف عن تلك الأسرار.»[3]

كما أنّه نوع من أنواع الإشارة ويعده مرادفا للإشارة الحسية. وأنه استعمل حتى صار مثلها أو نوع منها.[4] أما في الدراسات الحديثة أخذ الرمز اتجاهات مختلفة باختلاف التوجهات، يراه أدونيس: «بأنّه اللغّة التي تبدأ حين تنتهي القصيدة التي تكون في وعيك بعد قراءة القصيدة وأنّه البرق الذي ينسج الوعي أن يستنشق عالما لا حدود له، لذلك هو إضاءة للوجود المفعم واندفاع صوب الجوهر.»[5]

كما أن «الرمز معناه الإيحاء أي التعبير الغير مباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائُها اللغّة في دلالتها الوضعية.»[6] فالرمز هو علاقة بين الذات والأشياء التي تولد الإيحاء عن طريق الآثار النفسية.

ومنه نستطيع أن نقول إنالرمز هو تلك الصلة بين الذات والأشياء، التي تولد المشاعر عن طريق الآثار النفسية لا عن طريق التصريح؛ أي هو ذلك التعبير غير مباشر عن النواحي النفسية الدفينة والمستقرة التي لا تقوى اللغة على أدائها في صورتها الوضعية.

1-3 الرمز في المفهوم الأدبي:

الرمز في مفهومه الأدبي مظهر من مظاهر المعاصرة لأن الأديب يلجأ إلى تحطيم القوانين المألوفة بغية بناء عالمه الأدبي الملون بالغموض والذي أصبح ظاهرة أدبية في العصر الحديث، فهو يتحرك من الوضوح إلى الغموض ممّا يزيد الخطاب الأدبي الضبابية ويجعلنا لا نقف على المعنى الحقيقي للنص، وتصبح قراءته تعتمد على التأويل. ويجرنا ذلك إلى تعدّد المعنى وكثافة الغموض الذي يراه أدونيس «جوهرا أصيلا في الشعر ينشأ من اعتماد لغّة مجازية خيالية، تعبر عمّا تعجز عنه اللغّة البشريّة العادية.»[7] وما نقوله عن الشعر ينطبق على باقي الأجناس كالرواية والمسرحية فأصبح الأدب «ذا طبيعة خاصة تجنح نحو الانفعال الاستبطان، والكشف والشمولية والمغايرة، ... والكثافة والغموض، والتعقيد والتعدّد.» [8]

فالرمز الأدبي يسعى نحو مزيد من الخصوبة والعطاء للتجربة الشعرية، والوعي الشعري الرمزي يثبت بالصورة الحسية أمرا كليا فوق المحسوس.

فاستخدام الرمز هو محاولة لظفر بحقائق ومعاني عجز عنها التعبير المباشر، عليه أن يكون على شفافية حتى لا يصبح لغزا تقف العقول عنده حائرة.

2-الغموض في الشعر العربي:

الغموض ظاهرة نقدية وخاصية من خصائص الرّمز عرفتها الدراسات العربية القديمة والحديثة، أثير حولها جدل واسع بين مؤيد ورافض، فهي ظاهرة مخلة بالعملية الإبداعية عند الرّافضين، وميزة جمالية تميز الكلام الشّعري على الكلام الخطابي عند المؤيدين.[9]

والغموض في العصر الحديث والمعاصر أصبح يكسو القصيدة كلها ليس كالعصر القديم الذي كان يكتفي بالبيت والبيتين، لذلك يقول النّاقد عزالدين إسماعيل " فربما ارتبط الغموض بطبيعة الشعر ذاتها حتى ليمكن القول في بعض الأحيان أن الشعر هو الغموض."[10]

نستطيع أن نقول الغموض أصبح ظاهرة شعرية في العصر الحديث والمعاصر ربما يعكس الحياة الجماعية والفردية إذا ما سلّمنا أن الشّعر ما هو إلاّ انعكاس للواقع المعاش وصورة

المجتمع لدى الشاعر. والغموض في الشّعر أصبح لصيّقه، ممّا يستوجب على المتلقي أن يكون مثقف وعلى دراية بمقاصد الرّمز الأدبي حتى يستطيع فهم القصيدة والقبض على مراميها.

2-آليات استخدام الرمز:

للرمز دلالتين دلالة حقيقية وأخرى غير حقيقية يتلاعب الشاعر أو الناثر بها ويكمن هذا التلاعب في بغيتهما في استخدام الرمز قد يكون للمراوحة أو الاستشفاف أو الإبانة.

1-2 المراوحة:

هي «أن تتناوب دلالتان الحقيقية وغير الحقيقية، فيتحدث الشاعر مرّة عن الدلالة الحقيقية ثم يعود لينتقل منها إلى الدلالة غير الحقيقية ثم يتحدان أو ينفصلان، وقد أكثر الشعراء الفلسطينيون المعاصرون من المراوحـــة الحبيبة والوطن، أو الأم والوطن.»[11] يقول محمود درويش في قصيدته عاشق من فلسطين[12]:

رأيتُكِ في جبالِ الشّوك
راعيهْ بلا أغنام
مطاردةً ، وفي الأطلال . .
رأيتُكِ في خوابي الماءِ والقمحِ
. . .
محطَّمةً . رأيتُك في مقاهي اللّيل خادمةً
رأيتُكِ ملء ملح البحروالرّمل
وكنتِ جميلةً كالأرضِ . . كالأطفال . . كالفُلِّ

كانت المراوحة عند الشّاعر بين دلالتين الحبيبة والأرض حتى نهاية القصيدة وله ما يُبرره؛ لأن الحبيب يمارس تجربة إنسانية دفينة في أعماق قلبه، لا يمكن انفلات منها، ووطنه وأرضه لا تقل أهمية عن الأولى بل أكثر من ذلك فهي موته ولو كان حيا.[13]

والانتقال بين الأرض والحبيبة يولّد إحساسا يستثير كل تجارب الإنسان فوق أرضه.

2-2 الاستشفاف:

وهو أن يطرح الشاعر بين أيدينا الدلالة الواقعية، ومن خلال تلك الدلالة نستشف المعنى الرمزي، وفي استطاعتنا أن نلتقي الدلالة الواقعية، وأن نتوقف عندها غير متجاوزها إلى معاني التي تكمن خلفها.[14]

يقول الشاعر ممدوح عدوان في قصيدته الصحراء:

كنّا في الصحراء
ظمْأى نبحث عن قطرة ماء
ننتظرُ الغيثَ فلا يأتي
من أيِّ سماء

كُنّا كوماً لا نَعْرف

إن كنّا موتى أم أحياء

حينما أتت طائرة الأعداء

قصفتنا

قصفتنا

قصفتنا

ألقت كل قنابلها

فَتَفَجَّرَنبعُ الماء

تحمل قصيدة الصحراء في ثناياها دلالتين معا، وامتلكت قدرة على الإيحاء في نظرتها إلى تجدّد الحياة بعد الموت، وذلك إذا ما تمعنا في دلالتها نجد الصحراء والظمأ رمز لجفاف الحياة العربية قبل الهزيمة، وظهور العدوان الذي أزاح وكشف الغِشاوة عن العيون، وجعلهم يتطلعون إلى حياة أفضل بعد النصر (الغيث) التي تمثلت في نبع الماء.[15]

3-2 الإنابة:

وهو أن يضع الشاعر كلمة لتنوب مناب موقف فكري أو شعوري مكتمل تستحضره في أذهان المتلقين. وتجدر الإشارة إلى أن الدلالتين الواقعية والرمزية تقفان جنبا إلى جنب، في حركة تفاعل مستمر في حالة إبانة ويتمحور عملهما في تغذية الجو الشعوري العام، الذي يُولّده البناء الفني المتكامل للقصيدة.[16]

3-أنواع الرمز:

3-1 الرمز التاريخي:

وجد الشاعر المعاصر في الشخصيات التاريخية معينا لا ينضب فجعله عنصرا أساسا في بناء قصيدته من خلال اتخاذه قناعا يجسد معاناته وآلامه، فهو يحاول التوفيق بين نوعين مختلفين من الخطاب التاريخي والخطاب الشعري كشخصية المعتصم، خالد بن الوليد...[12]

تقول فدوى طوقان:[17]

آه وا معتصماهُ

آه يا ثأر العشيرة

آه جرحي مرغ الجلادُ جُرحى في الرُّغام

ليت للبراق عيناً

آه يا ذل الإسار

ألف هند تحت جلدي

استحضرت الشاعرة الرمز التاريخي في المرأة الهاشمية التي اقترنت استغاثتها بالمعتصم، وشخصية ليلى بنت لكيز* التي أسرها الروم وهي في طريقها لتُزف إلى زوجها، فأرسلت قصيدة

قالت فيها:

ليت للبراق عيناً فترى ما أُلاقي من بلاء وعناء.

كما رفدت هاتين الشخصيتين التاريخيتين بشخصية تاريخية ثالثة؛ ليكتمل المشهد وتتضح رؤية في بناء فني متماسك فأتت بشخصية هند بنت عُتبة التي أكلت كبد حمزة بن عبد المطلب في موقعة أُحد، والتي يتخذها العرب رمزا لأبشع صور الثأر، وكأنّما أرادت الشاعرة أن تكون هذه الشخصيات الثلاثة مجتمعة في ظل همّ ثقيل وهو الاحتلال الصهيوني لبلدها فلسطين، فيظهر الغموض على النص ولا ينفك إلاّ بوعي المتلقي للتاريخ ممّا يضفي مسحة جمالية.

2-3 الرمز الصوفي:

سعى الصوفية للدلالة على المعاني الروحية وعالمهم النوراني الخاص بهم فاستعملوا الوصف والغزل والخمرة الحسية؛ التي هي رمز من رموز الوجد الصوفي، كما تشهد لغتهم تحولات رمزية في شعرهم، وكان حرص الصوفية على إبقاء الأسرار بينهم يتعداهم إلى من ليس منهم، وتعبير عنها بأسلوب غامض أدى ذلك إلى عدم فهم العامة لمقاصدهم لعلوها عن مداركهم وبُعدها عن أذواقهم فألصقت بهم الشبهة ونُسبت إليهم، أمور ترفعوا عنها، ترهوا طريقتهم منها ولكن كل ذلك أهون عليهم من إفشاء سر من أسرار الله «ويعتقدون أن من حاول الكشف عنها لغير أهلها أو أعطى تلك الحكم الإلهية لمن لا يستحقها فإنه أفشى السر الإلهي وخان الرسالة الصوفية، وهذا يؤدي بصاحبه إلى الهلاك واستحقاق القتل.»[18]

وممّن أكثر من نعت الخمرة الصوفي ابن الفارض موجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي يقول:

شرِبنَا عَلَى ذِكْرِ الحَبيبِ مدَامة   سَكِرنَا بِهَا منْ قَبل أنْ تخلق الكرم
لهَا البدْر كأس وهِيَ شَمسٌ، يُديرها هِلال ولمْ يَبدُو وإذا طلعت نَجْـم
ولولا شذاها ما اهتدت لجانــها   ولولا نساها ما تصورها الوهـم[19]

الغموض بالنسبة للرمز الصوفي:

يعمل الصوفيون على إحداث و« تعمُد الغموض والتعميمية في رموزهم لأمرين أولها الإغراق الذاتي وتكثيف الرمز تحمل أسرار لا يصح شرح وتدوين معانيها» [20]

- الثبات وعدم التجديد.
- الطابع الذاتي.
- الترادف في الرمز.[21]

3-3 الرمز الديني:

أصبحت الكتب السماوية مرجعا للشعراء لاستيفاء رموزهم والرمز الديني هو: «كل رمز في القرآن الكريم أو في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.» [22]

فنجدهم يوظفون سورة من القرآن أو قصة من قصص الأنبياء أو بعض الأماكن ذات الدلالة دينية، فيعمل الشاعر على استغلال ذلك الموروث الديني ويوظفه في قصائده حتى يعطي مسحة جمالية للقصيدة وبُعد دلالي عميق.

كما أخذت شخصية المسيح وموسى ومحمد وأيوب عليهم الصلاة والسلام و «وإذا كان الشعراء قد استغلوا القصص القرآنية وشخصيات الأنبياء والرسل التي وردت في الكتب المقدسة، فإنّهم لم ينسوا أن يستثمروا الطاقات الإيحائية التي تفيض من شخصية الشيطان، وغيرهم من الشخصيات التي وردت في الكتب السماوية، واقترنت بمواقف معينة.» [23]

تقول شاعرتنا:

القُدْسُ عَلَى دَرْبِ الْآلاَمْ
تُجْلَدُ تَحْتَ صَلِيبِ الْمِحْنَةِ
تُنْزَفُ تَحْتَ يَدِ الْجَلاَّدِ
وَالْعَالَمُ قَلْبٌ مُنْغَلِقٌ
دُونَ الْمَأْساه
هَذَا اللاَّمُكْتَرِثُ الْجَامِدُ يَا سَيِّدْ
انْطَفَأَتْ فيْهِ عَيْنُ الشَّمْسِ فَضَلَّ-
وتَاهْ
لَمْ يَرْفَعْ فِي الْمِحْنَةِ شَمْعَه
لَمْ يَذْرِفْ حَتَّى دَمْعَه
تَغْسِلُ فِي الْقُدْسِ الْأَحْزَانَ[24]

نلاحظ في هذه المقطوعة استدعاء الشاعرة لشخصية السيّد المسيح-عليه السلام-في نداءه (يا) و(الصليب)، تحاول أن تنبه المتلقي وتعود بذاكرته إلى تلك القصة المؤلمة التي حدثت لسيّدنا عيسى عليه السلام لو لم ينجيه الله سبحانه وتعالى، ولكنها تتكرر اليوم والشعب الفلسطيني بطلها وضحيتها.

4-3 الرمز الطبيعي:

هو أن يوظف الشاعر عنصر من عناصر الطبيعية ليعبر بواسطتها عن أحاسيسه وعما يختلج فؤاده من مشاعر وانفعالات وهي من خصائص الأدب الرومنسي.

كما استخدم الشعراء وخاصة الرمزيين عناصر الطبيعية فاختارتها شاعرتنا كوجه تختبئ خلفه وتخفي مشاعرها وتعمل على شحنه بدّلالات شعورية عميقة، فتصبح عبارة عن إيحاءات تُسبل على القصيدة مسحة جمالية. تقول فدوى في قصيدة الصيرورة:

ترنو وتحدّق في الأشياءْ
في قمر يسطع، في شعلهْ

في رش رذاذ تنعفه نافورة ماء

في قطٍّ يربص.. في عصفوريننفض أجنحةً مبتلّهْ

يتلفت، يجفل، يخطف ظلّهْ

ويطير إلى ذروة نخلهْ!

نجدها وظفت كل من (قمر، شعلة، نافورة، ماء، نخلة)

5-3 الرمز الأسطوري:

تشير التعريفات إلى أن الأسطورة هي كل ما ليس واقعي، ما لا يصدقه العقل، إذ أنها تدور حول حياة الآلهة أو أنصاف الآلهة أو كائنات خرافية تقوم بأعمال خارقة. والأساطير منبع ثري للإبداع الأدبي في كل عصر «لم يقتصر استعمال الشاعر العربي المعاصر بالأسطورة الفرعونية أو البابلية أو الكنعانية، بل وجد أبواب الحضارات القديمة المختلفة تفتح له، ليختار من أساطيرها المتنوعة ما يسقطه على تجاربه الآتية.» [25]أي أنه لم يكتف بالأساطير العربية بل تعداها إلى الأساطير اليونانية، الهندية وغيرهاومن بين أهم الرموز الأسطورية التي جذبت اهتمام الشاعر العربي المعاصر "تموز" (Tammuz)، " أدونيس" (Adonis)، "عشتار"(Ashtart)، "فينيق (phœnix) "، "سيزيف"(Sisyphe)، "أوزوريس" (Osiris).

دأب الشُّعراء على توظيف الأساطير في بناء قصائدهم للاستفادة من مخزونها الفني ، فاتَّجهوا لاتخاذها قناعاً يعلِّقون عليه حالاتهم لغرض خلق سياقات شعريَّة موازية للحالة الشُّعورية التي يعيشونها ويحسُّون أثرها ، ومحفِّزاً للشعور النفسي للمتلقي الذي سيكون للتوظيف الأسطوري شأنه في رفع درجة تفاعله مع النَّص ، وهذا عائدٌ لدرجه وعيه بالموروث الإنساني، وما قدمه من قيمة في الماضي، وما يمكن أن يقدمه للحاضر، و« فهم الموقف المعاصر وإذابته في شبهه الأسطوري ليكون الكل الذي يعطي الإحساس بالصدق التلقائي.»[26] ومن الشَّخصيات الأسطورية التي وظَّفها الشَّعراء بطلاقة شخصية (السندباد) . هذه الشخصية الفلكلورية التي دخلت عالم الأسطورة بما نسج حولها من خوارق غير عادية حولتها مع مرور الزمن وكثرة التَّداول إلى أسطورة مثلها مثل (شهرزاد، وشهريار، و.) وقيمة الأسطورة للعمل الإبداعي أنَّها «تعمل كخميرة لكل أشكال التعبير الفني»[27]ولكن ليس بالمعنى الحرفي للقول فهناك عناصر غيرها تسهم في ذلك.

4-سمّات الرّمز:

1-4 الإيحائية:

«وتعني الرمز الفني دلالات متعددة لا يجوز أن يكون له دلالة واحدة فحسب، وإن يكن لا يمنع أن تتصدر إحدى الدلالات. فالإيحاء هو إيحاء مكثف وكثير بموضوعه يؤدي وظيفة يعجز عنها التأويل لظواهر والأشياء والتجربة.» [28]

2-4 الحسية:

وفيها يكون الرمز مجسدا بأن التحويل الذي يتم في الرمز لا ينهض بتجريد الأشياء من حسيتها، بل ينقلها من مستواها الحسي إلى آخر، غير أنه لابد من الإشارة إلى أن الحسية في الرمز لا تتنافى والإيحائية المعنوية فيه.

3-4 الانفعالية:

«فيها أن الرمز هو حامل انفعال لا حامل فكرة وهو بذلك يختلف عن الرموز الدينية والمنطقية والعلمية والعملية التي هي أفكار ومفاهيم لا انفعالات وأحاسيس، ومن البديهي إن هذه السمة تأتي مـن طبيعة التجـربة الجمـــالية التي هي طبيعة انفعالية.» [29]

4-4 التخييل:

ويعني أن الرمز نتاج المجاز لا نتاج الحقيقة وهذا المجاز محكوم بطبيعة الأثر الجمالي الذي تخلقه الظواهر والأشياء في الذات المبدعة بمعنى أن التخييل لا ينبغي أن يكون سائبا في الرمز من الكينونة الواقعية، وهذا ما يؤكده (أدرونو*) حيث يرى أن الانفعالات المطلقة من الكينونة الواقعية لن تؤدي إلا إلى تخييل مجاني رخيص ومحدد القيمة.[30]

5-4 السياقية:

وتعني أن الرمز ليس به أهمية خارج السياق الفني إذ أن الظاهرة الطبيعية الواحدة يمكن أن تتوالد منها دلالات متعددة من الرموز الفنية، فلا غرابة إذ يتناقض رمزان على الصعيد الجمالي والإيحائي وهما من كينونة واقعية واحدة بحسب عدد الآثار أو التحريضات الجمالية.[31]

6-4 الإيجاز: وهو الاختصار في الكلام.

7-4 الإبهام: وهو الكلام الذي له أكثر من وجه.

8-4 الإشباع: أي الكلام الذي تتسع فيه التأويلات.

9-4 التلغيز: وهو إضمار الكلام.

10-4 غير مباشر في التعبير: وهو الدوران حول الموضوع ولا تسميه[32]

نرصد الغموض في بعض نماذج شعر فدوى طوقان والمسحة الجمالية التي تصحب شعرها. تقول فدوى طوقان:[33]

يوم فشا الطّاعون في مدينتي
خرجت للعراءْ
مَفْتُوحة الصَّدْر إلى السماءْ
أَهتُفُ من قرارة الأحزان بالرياحْ

هَبِيّ وسُوقِي نَحوناَ السَّحَاب يا رِيَاحْ
وَ أنْـزِلِي الأمطارْ
تُطَهِر الهواءَ في مديني
وَتَغْسِلُ البيُوتَ والجِبالَ والأشجارْ
ولْتنزل الأمطارْ

إذا رصدنا الرموز نجد (الطاعون، الرياح، الجبال، الأشجار، السحاب، السماء، الأمطار...)

رمز الطاعون الذي هو مرض مدمر في دلالته الحقيقة بينما يتجلى لنا رمزية الطاعون في العدو الصهيوني وهو ما يسمى بالرمز التناظري حيث نجد:

الطاعون: مرض مزمن، فتاك، كثرة الأشلاء، الرعب...

العدو الصهيوني: اغتصاب الأرض، الفتك، كثرة القتل، التهجير، الرعب...

استغلت الشاعرة المعاني التي يوحي بها الطاعون فأسقطتها على العدو الغاصب الذي اقتلع شعبا من أرضه وشرد أبناه وقتَّل أطفاله ورمّل نساءه وانتهك أعراضه.

كما اكتنف الرمز نوع من الغموض الذي سرعان أبدى مسحة جمالية لدى المتلقي في عملية إسقاطه، كما أعطت الشاعرة الرمز فعالية وإيحاء وذلك من خلال المزاوجة بين تجربتها الشعورية ومواقفها الإنسانية وقدرتها على استحضار والربط بين الصور المتجانسة.

كما يتوالى الرمز في الرمز الطبيعي (الرياح، الجبال، السماء، الأشجار، الأمطار...)

الأشجار: التي ترمز إلى الثبات وعمق الجذور في الأرض والتي توحي إلى ارتباط الفلسطيني بأرضه ووطنه. كما تدل على التجدد في الأجيال المتعاقبة كما تتجدد الأشجار بين الفصول.

السماء: التي تظهر شموخ وأنفة الفلسطيني الذي يأبى السقوط واستسلام وهي مستمدة من دينه وعروبته.

الجبال: تبين شموخا ومتانة والتصاق هذا الشعب بمقوماته وأصالته التي تأبى الاندثار.

الرياح: وهي ذات دلالة توحي بالخير في توظيفه الديني يقول: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.**﴾[34]

فتوظيف الشاعرة للرمز الطبيعي (السماء، السحاب، الجبال، الأشجار) له دلالة خاصة متعلقة بترميز الأساس (الطاعون) كأن تريد أن تقول إنمظاهر الطبيعية كفيلة بطهارة المدينة من الطاعون إذ هو وباء لا ينته إلا بالمطر، فالوباء ينتشر والرياح والأمطار ترفعه التي توحي بدورها على أن الطاعون احتلال ومظاهر الطبيعة الغضب والمقاومة الرفض التي تتجلى في أفعال الأمر (هَبِيّ، سُوقِي، أنر، ولتنزلْ...) تقول فدوى طوقان:

نسرا فنَسْرُ غالهم وحش الظلام

سرق السمو من الأعالي...آه يا وطني[35]

يكمن الرمز في النسر وهو رمز أسطوري تقول الأسطورة في ذلك: «أن لقمان طلب من الله أن يأتيه عمرا أطول من أي إنسان آخر ويجعله الله مختارا بين ثلاثةخيارات، البقاء ببقاء سبع بقرات عفر في جبل وعر لا يمسسهن ذعر أو البقاء ببقاء سبع نوايات من التمر مستودعات في صخر لا يمسسهن ندى ولا قط، أو البقاء ببقاء سبعة نسور كلما هلك نسر عقبه نسر. فاختار لقمان الخيار الثالث لأن النسر طائر معمر وتقول الأسطورة إن عمر كل نسر خمسمئة وهكذا عاش لقمان سنين طويلة.»[36]

قال الأعشى:

و أنت الذي ألهيت قبلا بكاسه .. ولقمان إذ خيرت لقمان في العمر.
لنفسك أن تختارسبعة أنسر .. إذا ما مضى نسرخلوت إلى نسر
فعمرحتى خال أن نسوره خلود وهل تبقى النفوس على الدهر[37]

يكتنف هذا الرمز الأسطوري غموض يحول بينك وبين المعنى العام للنص الذي سرعان ما يظهر بمعرفة حيثيات الأسطورة ممّا تضفي مسحة جمالية على النص وذلك في استحضار الشاعرة لهذه الأسطورة وإسقاطها على أبطال فلسطين الذين استشهدوا واحد تلو الآخر ولكن فلسطين لا تخلو من الأبطال فعمرها طويل لا ينقض. وقولها:

أحبائي
وهَب الشهم منتفضا وراء النهر
أصيحوا، ها حصان الشعب يصهل و اثق النهض
ويفلق من حصارالنحس والعتمة.[38]

نجد الرمز في الحصان الذي يحمل دلالات منها الأصالة والعروبة والقوة وتتجلى عند الشاعرة في الثورة الفلسطينية رمز القوة التي لا تقهر وهذا ما جسده الواقع.

ونرى نوع من الغموض للنص يتضح في قبض المتلقي على الدلالة التي تطرح مسحة جمالية وتظهر براءة الشاعرة في اقتناء ألفاظها ذات الدلالات الموحية والتي تفسح المجال على انفتاح النص على قراءة متعددة.

خاتمة:

في هذه الأسطر حاولنا تسليط الضوء على الرمز عند فدوى طوقان باعتبارها تنتمي إلى جيل الشعراء المعاصرين، سعيا إلى إبراز دور الرمز وأثره على المعنى وذلك بإحداثه ظاهرة الغموض التي عرفها الشعر المعاصر واتخذها مطية لبلوغ مقاصده وأهدافه تاركا مسحة جمالية استمالت متلقيها.

كما أظهر لنا الرمز البعد الجمالي في الإضمار دون الإفصاح الذي يبرز لنا ظاهرة التأويل في النص وتعدد القراءات.

كما أنّه لا يتأتى الفهم الصحيح للنصوص الشعرية الرمزية إلاّ إذا كان المتلقي على درجة من الوعي بحيثيات الرمز وبُعد استعمالاته لدى الشعراء والأهداف التي ينشدها من وراء ذلك.

مراجع البحث وإحالاته:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1ابن منظور. لسان العرب، مادة: رمز، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ج 6، ص: 222-223

إبراهيم رماني. أوراق في النقد الأدبي، دار الشهاب، الجزائر، ط:1، 1986، ص: 167 2

3عدنان حسين قاسم، التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، الدار العربية للنشر والتوزيع،نصر، ص:167

4ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، د ت، بيروت، لبنان، ط:05، 1981، ص: 304

5انظر:أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:03، 1983، ص:153

6محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، لبنان، ط: 03، 193، ص: 43

7إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1991، ص:74

8مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط:3، 1996. ص: 74

9انظر: ثريا عبد الوهاب العباسي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية، مج:17، ع:2، ص: 170.

10عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط:3، 1981، ص:188.

11عدنان حسين قاسم، التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، ص: 228

12محمود درويش، ديوان (الأعمال الأولى)، ط:1، 2005، ص:85.

13 انظر: عدنان حسين قاسم، المرجع السابق، ص: 230.

14 انظر: عدنان حسين قاسم، المرجع السابق، ص: 230

15 انظر: عدنان حسين قاسم، المرجع السابق، ص:231.

16انظر: عدنان حسين قاسم، التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، ص: 233-234.

*لَيْلى **بنت لكيز**بن مرّة بن أسد العَفِيفَة (ت. نحو 144 ق هـ / 483 م) شاعرة عربية جاهلية من قبيلةربيعة بن نزار وهي **ابنة** عم البراق بنروحان وزوجته.

17فدوى طوقان، الديوان، ص:244.

18توفيق بن عمر، دراسات في الزهد والتصوف، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1999، ص:99-100.

19عمر بن الفارض، الديوان، دار صادر، بيروت، ص: 140-142

20عاطف جودة مصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط:1، 1978.ص: 132.

21عاطف جودة مصر، المرجع السابق، ص:281.

22 نسمة بوصلاح، تجلي الرمز في الشعر الجزائري المعاصر،منشورات رابطة إبداع الثقافية الوطنية، بدعم من وزارة الثقافة، عام 2004.ص:111

23عاطف جودة، المرجع السابق، ص: 210

24فدوى طوقان، الديوان، ص:500.

25 عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط: 02، 1976م، ص: 221-222.

26أحمد كمال زكي: دراسات في النَّقد الأدبي، دار الأندلس للطباعة والنَّشر والتَّوزيع -بيروت – د. ط، د. ت، ص 179

27محفوظ محمد أبو أحميدة: قراءات في الأسطورة، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ط1 ،2007م، ص: 15

28سعد الدين كليب، وعي الحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د ط، 1997، ص: 69.

29نفسه، ص: 68.

30 المرجع السابق، ص: 68

31 انظر: سعد الدين كليب، وعي الحداثة، ص:70

32 محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، قراءات في الخطاب الشعري الصوفي المعاصر، دار بها الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، د ط، 2009، ص:40-41.

33فدوى طوقان. الديوان، ص: 217

34 سورة الأعراف، آية 57

35فدوى طوقان، الديوان، ص: 264.

36انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج:13، ص: 56.

37نفسه، ص:56

38 .فدوى طوقان. الديوان، ص:184

قائمة المصادروالمراجع:

1-إبراهيم رماني،أوراق في النقد الأدبي، دار الشهاب، الجزائر، ط:1، 1986.

2-إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر.

3-أحمد كمال زكي: دراسات في النَّقد الأدبي، دار الأندلس للطباعة والنَّشر والتَّوزيع -بيروت – لبنان، د ط، 1999.

4-ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، د ت، بيروت، لبنان، ط:05،

5-ابن منظور. لسان العرب، مادة: رمز، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ج 6.

6-أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:03، 1983.

7-توفيق بن عمر، دراسات في الزهد والتصوف، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1999.

8-سعد الدين كليب، وعي الحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د ط.

9-عاطف جودة مصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط:1، 1978.

11-عدنان حسين قاسم، التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، الدار العربية للنشر والتوزيع،نصر.

12-عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط:3، 1981.

13-عمر بن الفارض، الديوان، دار صادر، بيروت،

14-محفوظ محمد أبو أحميدة: قراءات في الأسطورة، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ط1، 2007م

15-محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، لبنان، ط: 03، 193.

16-محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، قراءات في الخطاب الشعري الصوفي المعاصر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، د ط، 2009.

17-محمود درويش، ديوان (الأعمال الأولى)، ط:1، 2005.

18-مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط:3، 1996.

19-فدوى طوقان، الديوان، ص:244.

20-نسمة بوصلاح، تجلي الرمز في الشعر الجزائري المعاصر، منشورات رابطة إبداع الثقافية الوطنية، بدعم من وزارة الثقافة، عام 2004.

21-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ج:13

المجلات:

1-ثريا عبد الوهاب العباسي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية، مج:17.